الابن الروحي

الأب أنطوان ملكي

نقرأ في مثل الابن الشاطر أن الأب قسم معيشته بين أبنائه. وعندما عاد ابنه ركض ووقع على عنقه وقبّله. وعندما عبّر الابن عن توبته فرح وعمّم الفرح. هل كل الآباء يقبلون أن يقسموا معيشتهم بين أبنائهم في حياتهم؟ حتى الذين يملكون الكثير، كم منهم يُعادون أبناءهم إن هم تطلعوا إلى ما يملكون؟ هل كل الآباء يقبلون أبناءهم بعد أن يكون الابن قد بذّر مال أبيه، و"سوّد وجه" العائلة؟ هل كل الآباء يقبلون عودة أبنائهم ويعيدونهم إلى نفس مكانتهم السابقة؟ الجواب على كل هذه الأسئلة هو النفي. الأب في هذا المثل أب مميّز، ليس كسائر الآباء، لا في هذا الزمان ولا قبله.

دائماً ما نناقش في تعاطينا مع هذا المثل توبة الابن الأصغر الشاطر أو عناد الابن الأكبر أو طيبة وحنو الأب. هنا ينبغي الإشارة إلى فكرة مهمة هي أن توبة الابن أظهرت محبة الأب ورحمته وحكمته. قد تنطبق هذه الصفات بنسب مختلفة على الآباء في هذا العالم، لكن ما يميّز الأب في النص هو أنه لم يفرح لأنه استعاد ابنه إليه هو، بل لأن ابنه "كَانَ مَيِّتًا فَعَاشَ، وَكَانَ ضَالاً فَوُجِدَ". إنه يفرح لابنه وليس لنفسه. كثيراً ما نسمع ونقرأ عن تفاني الآباء وتضحيتهم وحملهم لأبنائهم، خاصةً في فترة المناسبة الدهرية المسماة "عيد الأب". لكن هذا الأب لم يسامح ويفرح ويتقبّل لأن الآباء هكذا يتصرّفون، بل لأن توبة ابنه حرّكت كل هذا فيه. توبة ابنه أظهرت أبوّته في أجلى مظاهرها وأسماها.

لا بد لهذا الكلام الإنجيلي أن يجد تطبيقاً روحياً. فكما ينطبق على الأبوة الجسدية ينطبق على الأبوّة الروحية. إن توبة الأبناء هي التي تظهر أبوّة الآباء. وبالتالي، فالجواب على ما يكرره الكثيرون عن أنه ليس هناك آباءٌ روحيون، هو أنَّه بالحقيقة ليس هناك أبناءٌ روحيون. إن عدنا إلى سيَر القديسين نرى أن كثيراً من القديسين قد أظهرهم أبناؤهم الروحيون، كالقديس أفلاطون في القرن الثامن الذي أظهره ابنه الروحي القديس ثيوذوروس الستوديتي، والقديس سمعان التقي في القرن الحادي عشر الذي أظهره ابنه الروحي سمعان اللاهوتي الحديث، وصولاً إلى القرن العشرين حيث القديس يوسف الهدوئي أظهره أبناؤه الروحيون الكُثُر. يقول الرب أنّ من ثمارهم تعرفونهم. الأبناء الروحيون هم ثمار الآباء الروحيين. الابن الروحي إذ يلتجئ إلى كاهن أو راهب أو شيخ أو مرشد طالباً الإرشاد منه وممارساً التوبة في حضنه، يجعله ويظهره أباً. لا يستطيع أن يدّعي الأبوّة مَن لا أبناء له. ويمارس الأبوّة الروحية فعلاً مَن كانت علاقته بالمدعوين أبناءً له سويّة قائمة على المحبة والرحمة والحكمة. من دون استواء العلاقة بالمحبة والرحمة والحكمة يكون المدعو أباً رئيساً أو زعيماً أو معلماً، ولكنه ليس أباً.

عندما كان الرب يتكلّم مع الشعب بالناموس، كان المؤمنون شعبه، وكان بينه وبينهم عهد. عندما صارت المحبة هي الناموس، صار المؤمنون أبناء الله. الصورة نفسها تتكرر. في مثل الابن الشاطر لم يكتفِ الابن بأن يفكّر "أَنَا أَهْلِكُ جُوعًا! أَقُومُ وَأَذْهَبُ إِلَى أَبِي"، بل فعلاً " قَامَ وَجَاءَ إِلَى أَبِيهِ". هذا يحدث لكل واحد منا اليوم. يعرف أنه

أخطأ إلى السماء، لكن ينقصه الأب ليجيء إليه. لا قيمة للتوبة من غير اعتراف، بل هي تبقى موقفاً متحركاً قد يتحوّل يأساً ما لم يعترف التائب. بالاعتراف والحل يُلبَس التائب الحلة الأولى من جديد. إن توبة الابن الشاطر اكتملت بمحبة ومسامحة أبيه. والأمر نفسه يتكرر في كل مرة يقول الأب الروحي لابنه "انت لست تعترف لي بل لله الذي أنت واقف أمامه".

نسمع كثيرين يقولون أنهم لم يرتاحوا لهذا الأب ولا لذاك، أو أنهم لا يتقبّلون فكرة الاعتراف عند هذا الكاهن أو ذاك. قد يكون هذا الكلام صادقاً. لكن فلتعطَ النعمة التي تكمّل كل ضعف فرصتها لتعمل. إن لم يبادر المؤمن إلى مباشرة علاقة مع الأب الروحي فهو يعطّل النعمة فيه وفي الأب الروحي معاً. على الآباء أن يفهموا أن أبوتهم تتغذّى وتزهر من أبنائهم، فعليهم أن يتحلّوا بالحكمة ويعطوا كل واحد ما يطلب. مَن يطلب البنوة يعطونه الأبوة، مَن يطلب الاسترشاد يحملونه بصلواتهم قبل أن يتفوّهوا، ومَن يطلب الاعتراف يعطونه الحلّ الذي لا فضل لهم إلا في نقله. من جهة الأبناء عليهم أن يفهموا أن البنوّة الحقيقية تقوم حيث هم من المكان والزمان، ليس بالضرورة كما تصفها الكتب، والرهبانية منها بوجه خاص. يقول العديد من الآباء القديسين أن على الإنسان أن يصلي ليرسل له الله أباً روحياً. فإن التقى أباً فليتخلَّ عن الصورة التي في رأسه وليبدأ الاختبار معه. إن وجد البنوّة فليطلب أبوته، وإن وجد الحكمة فليطلب إرشاده، وإن لم يجد الاثنين فليعترف ويأخذ حلاً من الله عبر هذا الأب، كي لا تبرد توبته وتذبل فتموت. إن تكرار الخطيئة من دون اعتراف، مرة بعد مرة، يقتل الحسّ بالتوبة ويحوّل السقوط عادةً.

قد يرى البعض أننا في كل تريودي نكرر الحديث نفسه. لكن تواضع العشار وتوبة الابن الشاطر ليست أفكاراً لتركيب الأحاديث، بل مبادئ لنتبناها في حياتنا. في أعمال الكنيسة بشكل عام، وفي التريودي تحديداً، تذكيرٌ بهذه المبادئ وأهمية تثبيتها في الحياة. بالنسبة للأبناء الروحيين، يتولى آباؤهم الروحيون مهمة التذكير هذه، ويسمعونهم صوت الآب السماوي قائلاً " أَنْتَ مَعِي فِي كُلِّ حِينٍ، وَكُلُّ مَا لِي فَهُوَ لَكَ".

الابن الروحي

الأب أنطوان ملكي

نقرأ في مثل الابن الشاطر أن الأب قسم معيشته بين أبنائه. وعندما عاد ابنه ركض ووقع على عنقه وقبّله. وعندما عبّر الابن عن توبته فرح وعمّم الفرح. هل كل الآباء يقبلون أن يقسموا معيشتهم بين أبنائهم في حياتهم؟ حتى الذين يملكون الكثير، كم منهم يُعادون أبناءهم إن هم تطلعوا إلى ما يملكون؟ هل كل الآباء يقبلون أبناءهم بعد أن يكون الابن قد بذّر مال أبيه، و"سوّد وجه" العائلة؟ هل كل الآباء يقبلون عودة أبنائهم ويعيدونهم إلى نفس مكانتهم السابقة؟ الجواب على كل هذه الأسئلة هو النفي. الأب في هذا المثل أب مميّز، ليس كسائر الآباء، لا في هذا الزمان ولا قبله.

دائماً ما نناقش في تعاطينا مع هذا المثل توبة الابن الأصغر الشاطر أو عناد الابن الأكبر أو طيبة وحنو الأب. هنا ينبغي الإشارة إلى فكرة مهمة هي أن توبة الابن أظهرت محبة الأب ورحمته وحكمته. قد تنطبق هذه الصفات بنسب مختلفة على الآباء في هذا العالم، لكن ما يميّز الأب في النص هو أنه لم يفرح لأنه استعاد ابنه إليه هو، بل لأن ابنه "كَانَ مَيِّتًا فَعَاشَ، وَكَانَ ضَالاً فَوُجِدَ". إنه يفرح لابنه وليس لنفسه. كثيراً ما نسمع ونقرأ عن تفاني الآباء وتضحيتهم وحملهم لأبنائهم، خاصةً في فترة المناسبة الدهرية المسماة "عيد الأب". لكن هذا الأب لم يسامح ويفرح ويتقبّل لأن الآباء هكذا يتصرّفون، بل لأن توبة ابنه حرّكت كل هذا فيه. توبة ابنه أظهرت أبوّته في أجلى مظاهرها وأسماها.

لا بد لهذا الكلام الإنجيلي أن يجد تطبيقاً روحياً. فكما ينطبق على الأبوة الجسدية ينطبق على الأبوّة الروحية. إن توبة الأبناء هي التي تظهر أبوّة الآباء. وبالتالي، فالجواب على ما يكرره الكثيرون عن أنه ليس هناك آباءٌ روحيون، هو أنَّه بالحقيقة ليس هناك أبناءٌ روحيون. إن عدنا إلى سيَر القديسين نرى أن كثيراً من القديسين قد أظهرهم أبناؤهم الروحيون، كالقديس أفلاطون في القرن الثامن الذي أظهره ابنه الروحي القديس ثيوذوروس الستوديتي، والقديس سمعان التقي في القرن الحادي عشر الذي أظهره ابنه الروحي سمعان اللاهوتي الحديث، وصولاً إلى القرن العشرين حيث القديس يوسف الهدوئي أظهره أبناؤه الروحيون الكُثُر. يقول الرب أنّ من ثمارهم تعرفونهم. الأبناء الروحيون هم ثمار الآباء الروحيين. الابن الروحي إذ يلتجئ إلى كاهن أو راهب أو شيخ أو مرشد طالباً الإرشاد منه وممارساً التوبة في حضنه، يجعله ويظهره أباً. لا يستطيع أن يدّعي الأبوّة مَن لا أبناء له. ويمارس الأبوّة الروحية فعلاً مَن كانت علاقته بالمدعوين أبناءً له سويّة قائمة على المحبة والرحمة والحكمة. من دون استواء العلاقة بالمحبة والرحمة والحكمة يكون المدعو أباً رئيساً أو زعيماً أو معلماً، ولكنه ليس أباً.

عندما كان الرب يتكلّم مع الشعب بالناموس، كان المؤمنون شعبه، وكان بينه وبينهم عهد. عندما صارت المحبة هي الناموس، صار المؤمنون أبناء الله. الصورة نفسها تتكرر. في مثل الابن الشاطر لم يكتفِ الابن

بأن يفكّر "أنَا أَهْلِكُ جُوعًا! أَقُومُ وَأَذْهَبُ إِلَى أبي"، بل فعلاً " قَامَ وَجَاءَ إِلَى أَبِيهِ". هذا يحدث لكل واحد منا اليوم. يعرف أنه أخطأ إلى السماء، لكن ينقصه الأب ليجيء إليه. لا قيمة للتوبة من غير اعتراف، بل هي تبقى موقفاً متحركاً قد يتحوّل يأساً ما لم يعترف التائب. بالاعتراف والحل يُلبَس التائب الحلة الأولى من جديد. إن توبة الابن الشاطر اكتملت بمحبة ومسامحة أبيه. والأمر نفسه يتكرر في كل مرة يقول الأب الروحي لابنه "انت لست تعترف لي بل لله الذي أنت واقف أمامه".

نسمع كثيرين يقولون أنهم لم يرتاحوا لهذا الأب ولا لذاك، أو أنهم لا يتقبّلون فكرة الاعتراف عند هذا الكاهن أو ذاك. قد يكون هذا الكلام صادقاً. لكن فلتعطَ النعمة التي تكمّل كل ضعف فرصتها لتعمل. إن لم يبادر المؤمن إلى مباشرة علاقة مع الأب الروحي فهو يعطّ ل النعمة فيه وفي الأب الروحي معاً. على الآباء أن يفهموا أن أبوتهم تتغذّى وتزهر من أبنائهم، فعليهم أن يتحلّوا بالحكمة ويعطوا كل واحد ما يطلب. مَن يطلب البنوة يعطونه الأبوة، مَن يطلب الاسترشاد يحملونه بصلواتهم قبل أن يتفوّهوا، ومَن يطلب الاعتراف يعطونه الحلّ الذي لا فضل لهم إلا في نقله. من جهة الأبناء عليهم أن يفهموا أن البنوّة الحقيقية تقوم حيث هم من المكان والزمان، ليس بالضرورة كما تصفها الكتب، والرهبانية منها بوجه خاص. يقول العديد من الآباء القديسين أن على الإنسان أن يصلي ليرسل له الله أباً روحياً. فإن التقى أباً فليتخلَّ عن الصورة التي في رأسه وليبدأ الاختبار معه. إن وجد البنوّة فليطلب أبوته، وإن وجد الحكمة فليطلب إرشاده، وإن لم يجد الاثنين فليعترف ويأخذ حلاً من الله عبر هذا الأب، كي لا تبرد توبته وتذبل فتموت. إن تكرار الخطيئة من دون اعتراف، مرة بعد مرة، يقتل الحسّ بالتوبة ويحوّل السقوط عادةً.

قد يرى البعض أننا في كل تريودي نكرر الحديث نفسه. لكن تواضع العشار وتوبة الابن الشاطر ليست أفكاراً لتركيب الأحاديث، بل مبادئ لنتبناها في حياتنا. في أعمال الكنيسة بشكل عام، وفي التريودي تحديداً، تذكيرٌ بهذه المبادئ وأهمية تثبيتها في الحياة. بالنسبة للأبناء الروحيين، يتولى آباؤهم الروحيون مهمة التذكير هذه، ويسمعونهم صوت الآب السماوي قائلاً " أَنْتَ مَعِي فِي كُلِّ حِينٍ، وَكُلُّ مَا لِي فَهُوَ لَكَ".